آفاق الحضارة الاسلامية، اكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية
السنة الثالثة عشرة، العدد الثانی، خريف و شتاء ١٤٣١هـ.ق، صص ٢١ـ ٤١

إيحاءات التوحّد فی كلام أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السلام

الدكتورسيد عدنان اشكوری *

المستخلص

لقد اتّفق الكثير من المؤرّخين وذوی العلم والمعرفة علی كون شخصية أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السلام شخصية فذّة لا يكاد يضاهيها أحد. فهو إنسان ذو أبعاد عديدة جلّت عن أن يبلغ كنهها المتمعّنون. وقد ذهب البعض إلی أنّ الإمام علياً كان قد سبق عصره بكثير. فحارت كثير من الأفهام تجاه هذه العظمة وذهبت مذاهب شتی. فمنهم من لم يُطِق سموّه فنصب له ولأتباعه العداء. ومنهم من ألّهه وجعل يدعو لعبوديته. وقصُر آخرون عن درک عظمته فقصّروا فی حقّه ولم يتوانوا عن التوانی فی نصرته. ولم يكن سوی فئة صغيرة من أتباعه وأهل بيته ممّن قدروه حقّ قدره فلم يُفرِطوا فی حقّه ولم يفرّطوا. كلّ ذلک جعل منه رجلاً متوحّداً فذّاً مغترباً بين أبناء جلدته وعشيرته. وقد بثّ الإمام عليه السلام لواعج وحدته هذه فی طيّات خطبه ورسائله وكلماته ومواقفه المختلفة. ترمی هذه الدراسة إلی معرفة أبعاد التوحّد الذی عاشه أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السلام، من خلال استعراض موضوعی لكلامه فی نهج البلاغة مبتدئة البحث بتمهيد لمبحث التوحّد فی المفهوم والمصداق وتقديم نماذج شعرية من الشعور بالتوحّد.

الكلمات الرئيسة: التوحّد، الإمام علیّ عليه السلام، نهج البلاغة، الاغتراب، الحقّ.

المقدمة

إنّ الشعور بالغربة ليس شيئاً جديداً، فهو قديم قدم الإنسان. ومنذ أزمان بعيدة رأينا كيف أنّ أناساً كُثراً كانوا يعانون الغربة رغم أنّهم يعيشون فی مجتمعاتهم وبين ظهرانی قومهم. وبغضّ النظر عن كون دواعی هذه الغربة إيجابية أو سلبية فإنّ هذا الشعور مملّ مميت. إلاّ أنّ بعض الفلاسفة

* أستاذ مساعد بجامعة «تربيت معلم»، طهران eshkewaree45@gmail.com
تاريخ الوصول :٨٩/٨/١، تاريخ القبول: ٨٩/٨/٥

ـ ومنهم ابن باجه الأندلسى فى كتابه تدبير المتوحّد ـ يفضّلون تسمية الاغتراب الإيجابى بالتوحّد. أى أن يواجه المرء بيئة غير مألوفة لا يكاد يمتّ إليها بصلة، ولا تشاطره همومه ولا تحاول أن ترتقى إلى مستواه الفكرى والعقلى، فهو بذلک يمتاز بخصال تفوق خصال بنى قومه. فابن باجه «يشبّه المتوحدين بالنوابت وقد نقل إليهم هذا الاسم من العشب النابت من تلقاء نفسه بين الزرع ويستعمله ليصف أولئک الحكماء الذين يعيشون فى المدن الجاهلة، ذلک أنّه من خواص المدينة الكاملة أن لا يكون فيها نوابت. فالنوابت هم الذين يرون غير آراء أهل مدنهم» (الفيّومى، محمدابراهيم، ١٩٨٨م: ٣٢) يقول الدكتور معن زيادة فى مقدمته على كتاب تدبير المتوحّد لابن باجه:

> فالمتوحّد إذن هو إنسان غير عادى ينظر حوله ليكتشف أنّ كلّ ما فى محيطه غير طبيعى، ملوّث وغير صحّى. والسبب الرئيسى الذى يقوده إلى هذه النتيجة هو عيشه فى مدينة غير فاضلة والسبب الرئيس فى كون المدينة غير فاضلة هو أن أفعال مواطنيها لا تقوم على العقل ولا تستند إلى العقلانية... ووجود الإنسان العاقل فى إحدى المدن [غير الفاضلة] أو مشتقاتها هو سبب توحّده. فالتوحّد هو إلى حدّ بعيد، قناعة الفيلسوف بالتخلّى عن حلمه فى العيش فى المدينة الفاضلة. (ابن باجه، محمد بن يحيى، ١٩٧٨م: ٤٧)

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأى ابن باجه ومصاديق التوحّد، إلاّ أنّنا نفضّل استخدامه لمصطلح التوحّد للأفذاذ الذين يعيشون فى بيئة لا تواكب عظمتهم ولا تدانيها. أمّا فى شأن أمير المؤمنين علىّ (ع) فإنّه وكما سنرى يختلف عن الفيلسوف المتوحّد الذى تحدّث عنه ابن باجه بأنّه لا يتخلّى عن حلمه فى العيش فى المدينة الفاضلة، ويظلّ يقاوم ما أمكنه ذلک لأنّه يأخذ بنظر الاعتبار واجبه الذى ألقاه الله على عاتقه. يقول عليه السلام فى تبيين دواعى قبوله للخلافة:

> أما وَالَّذِى فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَولا حُضُورُ الْحَاضِرِ وقِيَامُ الْحُجَّة بوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلاّ يُقَارُّوا على كِظَّة ظَالِمٍ ولا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ولَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ولأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِى مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ. (عبده، محمد، ١٤١٣هـ.ق: ٥٦)

أى أنّه ورغم الظروف العاتية التى يواجهها فى المجتمع المنحرف لا يشعر باليأس ويرى أنّ من واجبه كعالم ربّانى فذّ أن لا يصمت تجاه غطرسة الظالمين وسغب المظلومين، هذا بالإضافة إلى السعى نحو إقامة مجتمع توحيدى عادل ما أمكنه ذلک.

من خلال هذه النظرة يتّضح لنا أنّ الإمام علياً عليه السلام يختلف فى غربته وتوحّده عن سائر المغتربين فى نقاط ويشاطرونه الاغتراب فى نقاط أخرى. وهذا ما تحاول هذه الدراسة أن تتبيّنه والله ولى التوفيق.

ألف) البعد عن الأوطان

إنّ الشعر العربی حافل فی شتی مراحله وعصوره بمعانی الغربة الجغرافیة وأبیات الحنین إلی الوطن. فالمعروف عن العربی أنّه کثیراً ما کان یضرب فی الفیافی والصحاری إمّا طلباً للکلأ والرزق وإمّا لأغراض سیاسیة وعسکریة واجتماعیة. وکان لذلک النأی عن الأوطان أثره فی إثارة قرائح الشعراء للتغنّی بمشاعر الغربة والحنین إلی البیئات التی نشأوا فیها. ونشیر هنا إلی نماذج من أبیات الحنین. یقول حاتم الطائیّ:

حننتُ إلی الأجبالِ أجبالِ طَیٍّ وحنَّتْ قلوصی أنْ رأتْ سوطَ أحمرا[1]

(الطائی، حاتم، ١٤٠٦هـ.ق: ٢١)

وقد عبّر شاعر آخر عن تبرّمه فی الغربة التی تضطرّه أن یتحامق مع الحمقی:

وأنزلنی طولُ النوی دار غربةٍ إذا شئتُ لاقَیْتُ امرأ لا أشاکلُهْ
فحامقْتُهُ حتی یقالَ سجیّةٌ ولو کان ذا عقلٍ لکُنْتُ أُعاقِلُهْ
ولو کنتُ فی قومی وجلِّ عشیرتی لأَلْفَیتُ فیهم کلَّ خِرْقٍ أُواصِلُهْ

(ابن عربی،١٤٢٢ محیی الدین، هـ.ق، ج٢: ٣٠٣)

ویمنّی آخر نفسه بالعودة إلی دیاره التی نأی عنها فذاق کلّ هوان فی دار غربته:

ألا لیت شعری والحوادثُ جَمَّةٌ متی تجمع الأیامُ ما فَرَّقَ الشملا
وکلُّ غریبٍ سوف یُمسی بِذلَّةٍ إذا بانَ عن أوطانِهِ وجفا الأهلا

(المصدر السابق: ٢٨٠)

وهذا عنترة بن شدّاد یصف حنینه إلی وطنه عندما خرج یرید خلاص ولدیه من الأسر غصوب وسیسرة:

أحرَقَتْنی نارُ الجوی والبعادِ بعدَ فَقْدِ الأوطانِ والأولادِ
شابَ رأسی فصارَ أبیضَ لوناً بعدَما کانَ حالکاً بالسوادِ

(عنترة بن شداد، ١٨٩٣م: ٣٤)

وذکر الخطیب البغدادی فی تاریخ بغداد أبیاتاً لأبی محلم الشاعر أنشدها لعبدالله بن الطاهر عندما مرّ بمدینة الریّ فی طریقهما إلی خراسان. وکان أبو محلم قد تعب من کثرة السفر طلباً للرزق وحنّ لأسرته بالحجاز. ویزداد إحساسه بالغربة بعد أن دهمته الشیخوخة العاجزة، فیتلهّف علی أن یستریح من رحلة الحیاة بالعودة فیقول:

أفــی كــلّ عــامٍ غربــةٌ وَنُــزُوحُ أمــا للنَّــوی مِــن ونْيَــةٍ فَتَــرِيحُ
لقــد طلــحَ البــينُ المشــتُّ ركــائبی فهــل أرَيَــنَّ البــينَ وهــو طلــيحُ[٢]
وذكَّرنــی بالــرَّیِّ نــوحُ حَمامــةٍ فنُحــتُ وذو الشَّجْوِ الحـزينِ يَنـوحُ
و ناحَــتْ وفرخاهــا بحيــثُ تَراهُمــا ونُحــتُ وأســرابُ الـدموعِ ســفوحُ
علــی أنَّهــا ناحــتْ ولــم تَـذْرِ دمعــةً ومِــن دُونِ أفراخــی مَهامِــهُ فِــيحُ[٣]
عسی جُودُ عبدِ اللّهِ أن يعكِسَ النَّوی فنلقی عصی التطـوافِ وهــی طَـرِيحُ

فما كان من عبد الله بن الطاهر إلاّ أن زوّده بستين ألفاً من الدنانير ومركب وكسـوة، وسـرّحه ليعود إلی أهله. (الخطيب البغدادی، احمد بن علی، ١٤١٧ هـ.ق، ج ٩: ٤٩٣)

ويحكی أنّه عندما كان ابن جبير فی دمشق قطع غصنا صغيراً من شجرة كبيرة ثمّ قال:

لا تَغتَــرِبْ عَــن وَطَــنٍ واحْــذَرْ تَصــاريفَ النَّــوی
أمـــا تَــری الغُصْــنَ إذا مــا فــارَقَ الأصْــلَ ذَوی؟

(فهيم، حسين محمّد ١٩٨٩م: ٩١)

والأدب العربی زاخر بمثل هذه النماذج، جمعها البعض فی مختاراتهم الأدبية (للمزيـد راجـع كتاب الحنين والغربة فی الشعر العربی للدكتور يحيی الجبوری)

أمّا أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السلام فإنّه لا يری لتربة ما حقّاً عليه لكونها وطناً له. إذ إنّ أفقه الفكری أعمق وأسمی من أن تأسره أصفاد الوشائج المادّية. إنّـه الرجـل المثـالی الـذی ينطلق من مبدأ قرآنی، فالقرآن الكريم يرشد أتباعه إلی الضرب فی الأرض واتخاذ سـبيل الهجـرة فيما إذا تعرّضت عقيدتهم للخطر فی البيئة التی يقطنونها: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِی أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِی الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (سورة النساء: ٩٧) فالآية واضحة كلّ الوضوح وتمنـع المـرء مـن المكوث فی الوطن عندما تداهم عقيدته المخاطر. يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ الْبِلادِ مَا حَمَلَكَ. (عبده، ١٤١٣ هـ.ق: ٧٢٤)

ولو تأمّلنا فی معنی هذا الحديث البسيط لظفرنا بملاحظتين:

الأولی أنّ صيغة الكلام إنّما تقصد المخاطب دون المـتكلّم، أی إنّـه لا يتحـدّث عـن نفسـه وحسب وإنّما يقصد تعميم الكلام علی أتباعه وتلامذته. الثانية أنّ بلاد الدنيا عنده سواء لا فضـل لأحدها علی الآخر إلاّ فيما يتوفّر للمرء فيها من أمان واحترام وضمان للحقوق.

وتؤيّد هذا المعنی أبيات من الشعر نُسبت إليه وأدرجت فی ديوانه:

تَغَرَّبْ عَنِ الأوطانِ فی طَلَبِ العُلـی وَسافِرْ فَفِـی الأسْـفارِ خَمْـسُ فَوائِـدِ
تَفَـرُّجُ هَـمٍّ وَاكْتِسـابُ مَعِيشَـةٍ وَعِلْـمٌ وآدابٌ وصُـحْبَةُ ماجِـدِ
فإنْ قِيـلَ : فـی الأسْـفارِ ذُلٌّ ومِحْنَـةٌ وقَطْـعُ الفَيـافی وارْتِكـابُ الشَّـدائِدِ
فَمَـوْتُ الفَتـی خَيْـرٌ لَـهُ مِـنْ مُقامِـهِ بِـدارِ هَـوانٍ بَـينَ واشٍ وحاسِـدِ

(الإمام علی بن ابی طالب، ۱۳۸۲ هـ.ق: ٤٥ و ٤٦)

ولا نكاد نجد له كلاماً يوحی بشكواه من غربة جغرافية ومكانية أو يـنمّ عـن حنـين إلـی وطن. بلی قد جاء فی نهج البلاغة ما يشيد فيه بمكّة لكونها البلد الحرام الذی أوجب الله تعـالی الحجّ إليه.

ب) النوی الزمانی

نقصد بالنوی الزمانی شعور المرء بعدم انتمائه لزمانه الذی يعيش فيه. إذ قد يتحوّل المرء عن عهد زمنی كان قد ألفه وأنس به إلی عهد آخر انقلبت فيه الموازين ولم يعد يشعر بصـلة تربطـه بهـذا الزمان الجديد. وأكثر ما يكون ذلک فی مرحلة الكبر حيث يواجه الإنسان عهداً غير عهـده وقـد فتر جسمه وضعفت ذاكرته ولم يعد الشباب من حوله يعيرونه أدنی اهتمـام وبـدأوا يتبرّمـون بـه ويضيقون به ذرعاً. لعلّ خير مثال علی ذلک بيت الشعر المعروف:

ألا ليـت الشـبابَ يعـودُ يومـاً فأخبـرَهُ بمـا فَعَـلَ المشـيبُ

يقول الشريف المرتضی فی ذمّ المشيب الذی يسلبه محاسنه ويعيره مساوئ الدهر:

لا مرحبـاً بالشـيبِ أظلـمَ بـاطنی لمّـا تجلّلنـی وأشـرقَ ظـاهری
لا ذنـبَ لـی قبـلَ المشـيبِ وإنّنـی لَمُؤاخَـذٌ مِـن بعـدِهِ بجرائـرِ

(محجوب، فاطمة، بلا تا: ٦١)

ويقول أبو فراس الحمدانی:

مـا إن شـبتُ مـن كبـرٍ ولكـنْ لقِيـتُ مِـنَ الأحبَّـةِ مـا أشـابا

(الحمدانی، ابوفراس، ۱۹۸۷م: ۲۷)

والأدب العربی زاخر أيضاً بأنواع الشعر الدالّ علی شعور المرء بالغربة عندما يطعـن بالسـنّ. وهذا النمط لا نكاد نجد له مثالاً لدی أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السلام، فهو المعروف بعدم اكتراثه للدنيا وبتحذير الناس من الوثوق بالدنيا وهو الخبير بأحوال الـدنيا ومـآل الإنسـان. يقول عليه السلام:

مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِی الْيَوْمِ وأَسْرَعَ الْأَيَّامَ فِی الشَّهْرِ وأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِی السَّنَةِ وأَسْرَعَ السِّنِينَ فِی الْعُمُرِ. (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ١٨٦)

ويكفی أن يلقی أحدنا نظرة فاحصة إلی نهج البلاغة ليجد نفسه أمام امرئ خلع كلّ مظاهر العبودية لغير الله تعالی وأعرض عن الدنيا وعافها عيافاً لا رجعة له.

وقد يكون سبب الغربة عيش المرء فی بيئة تنكّرت له من حيث الفضائل التی أخذت بالتلاشی وحلّت محلّها معايير لا تمتّ بصلة إلی معتقدات الفرد فيبدأ بالتذمّر من هذا التنكّر ويبدی شكواه بصور مختلفة. فمنها أنّه يذكر محاسن الأيام الماضية ويقارن بينها وبين حاضره المرفوض. ومنها أنّه يتطلّع نحو غدٍ مشرق زاهٍ يختلف عمّا هو عليه الآن. وهذا النمط قليل فی الشعر العربی إلاّ لدی الموقنين ببشائر الأديان السماوية الواعدة بظهور المنقذ فی آخر الزمان، والذی يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. يقول القرآن الكريم: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِیَ الصَّالِحُونَ (سورة الأنبياء: ١٠٥). ويقول عزّ من قائل : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِی الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِی الأَرْضِ (سورة القصص:٥ و ٦). إنّ الإيمان بمثل هذه الوعود والتطلّع إليه بلهفة ونفاد صبر، يعدّ نوعاً من الغربة الزمنية. وهی كما ذكرنا قليلة فی الشعر العربی لا نجدها إلاّ عند الموقنين بها. يقول دعبل الخزاعی:

فلولا الذی أرجوه فی اليوم أو غدٍ ... تَقَطَّعَ قلبی إثرهم حسراتِ
خروجُ إمامٍ لا محالةَ خارجٌ ... يقومُ علی اسم الله والبركاتِ
يميّزُ فينا كلَّ حقٍّ وباطلٍ ... ويُجزی علی النَّعْماءِ والنّقِماتِ
فيا نفسُ طيبی ثمّ يا نفس أبشری ... فغيرُ بعيدٍ كلُّ ما هو آتی

(البستانی، فؤادأفرام، ١٩٩٣م، ج٣: ٦٩و٧٠)

وأمّا النوع الأول من الغربة الزمنية ـ أی التطلّع نحو الماضی ـ فقد جادت فيه قرائح الشعراء بالكثير الكثير.

لكنّ أمير المؤمنين علی بن أبی طالب عليه السلام، لا يطمح إلی عودة الماضی، يقول:

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ ومَا أَدْبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُن. (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ٦٦٣)

فهيهات أن يعود الزمان بما مضی، لكنّه إن تطلّع إلی الماضی فلكون الحاضر يعجّ بمظاهر سلبية لا تروقه ولا تناسب أفكاره ومعتقداته. يقول عليه السلام:

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِی دَهْرٍ عَنُودٍ وزَمَنٍ كَنُودٍ يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً ويَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً لا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا ولا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا ولا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّی تَحُلَّ بِنَا. (المصدر السابق: ١٠٠)

إنّه یشکو انقلاب الموازین إذ یُعدّ المحسن مسیئاً ویُوفَّر للظالم أن یزداد ظلماً والناس معرضون عن العلم مقبلون علی الجهل ویأمنون صروف الدهر حتی تقع بهم. إنّه الخبیر الذی خبر الدهر وعرف صروفه وکان أقلّ ما یتوقّعه من مجتمعه أن ینصتوا لنصحه:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. (المصدر السابق: ۱۰۷)

ویتوق الإمام إلی عهد رسول الله صلّی الله علیه وآله ویقارن بین أصحاب رسول الله وأصحابه المتقاعسین عن نصرة الحقّ والمکبّین علی حبّ الدنیا وزبرجها:

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلی‌الله‌علیه وآله فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءَ الثَّوَابِ. (المصدر السابق: ۲۱۷)

وفی موضع آخر یصف أصحاب رسول الله الأشاوس المتفانین فی الحقّ والذین لا یداهنون فی سبیل إحقاقه ولا یوالون الذین کفروا حتّی وإن کانوا من أقاربهم وذویهم:

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلّی الله علیه وآله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ وَجِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلاَنِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَّسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الإِسْلاَمُ مُلْقِياً جِرَانَهُ وَمُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ.

ثمّ سرعان ما یبدی شکواه بعقد مقارنة بین أصحابه وأصحاب رسول الله ثمّ یبدی مخاوفه من تقاعس أصحابه عن نصرة الحقّ قائلاً:

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلا اخْضَرَّ لِلإِيمَانِ عُودٌ وَايْمُ اللَّهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً وَلَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً. (المصدر السابق: ۱۲۹)

ج) الاغتراب الإخوانی

قد یکون منشأ الغربة التی تنتاب المتوحّد بعده عن أناس یعدّهم أحباباً له یخلو إلیهم کلّما داهمته الخطوب وضاقت علیه الأرض بما رحبت. وغالباً ما یکون الفراق إثر افتقاده لأولئک الإخوان الذین فرّق الموت بینه وبینهم. لقد بدأت غربة أمیر المؤمنین بعد رحیل الرسول الأکرم صلّی الله علیه وآله وسلّم. کیف لا وهو الذی کان بمثابة الظلّ للرسول یلازمه منذ نعومة أظفاره، خاصّة وأنّه صلوات الله علیه قد تعّهده بالرعایة وکلف بتربیته وتنشئته. إنّه یصف هذه القرابة بقوله:

وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِی مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلّی الله علیه وآله بِالْقَرَابَةِ الْقَرِیبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِیصَةِ وَضَعَنِی فِی حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ یَضُمُّنِی إِلَی صَدْرِهِ وَیَكْنُفُنِی إِلَی فِرَاشِهِ وَیُمِسُّنِی جَسَدَهُ وَیُشِمُّنِی عَرْفَهُ وَكَانَ یَمْضَغُ الشَّیْءَ ثُمَّ یُلْقِمُنِیهِ وَمَا وَجَدَ لِی كَذْبَةً فِی قَوْلٍ وَلا خَطْلَةً فِی فِعْلٍ وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صلّی الله علیه وآله مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِیماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ یَسْلُكُ بِهِ طَرِیقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَیْلَهُ وَنَهَارَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِیلِ أَثَرَ أُمِّهِ یَرْفَعُ لِی فِی كُلِّ یَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً وَیَأْمُرُنِی بِالاقْتِدَاءِ بِهِ. (المصدر السابق: ٤١١)

ولشدّة رعاية الرسول له آخی بينه وبين نفسه عندما آخی بين المهاجرين والأنصار فقال علیّ (ع) فی ذلک:

أقیکَ بنفسی أیّها المصطفی الّذی	هَدانا بهِ الرَّحمنُ مِن غُمَّةِ الجَهْلِ
وأفدیکَ حَوْبائی وَما قَدْرُ مُهجَتی	لِمَن أنتمی فیهِ إلی الفرعِ والأصلِ
ومَن ضَمَّنی مُذ كُنتُ طِفلاً ویافعاً	وأنعَشَنی بالعَلِّ مِنهُ وَبالنَّهْلِ
لکَ الفضلُ إنّی ما حَییتُ لَشاكِرٌ	لإتمامِ ما أُولِیتَ یا خاتمَ الرُّسْلِ

(الإمام علی بن ابی طالب، ١٣٨٢ هـ.ق: ١٠٠)

ولشدّما كانا يتناجيان ويبثّان لواعجهما لبعضهما البعض، حتّی إذا ما نزل أمر الله تعالی ينهی المؤمنين أن يناجوا الرسول إلاّ بعد أن يقدّم المناجی صدقة قبل نجواه فقال تعالی: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِکَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المجادلة: ١٢و١٣) أشفق كلّ المؤمنين من دفع الصدقة إلاّ علياً عليه السلام حيث دفعها وذهب إلی حبيبه رسول الله يناجيه، ثمّ أسقط الله ذلک حكم الصدقة عن المؤمنين فقال علیّ عليه السلام:

آية فی كتاب اللّه عز وجل لم يعمل بها أحد قبلی ولا يعمل بها أحد بعدی، كان عندی دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول اللّه صلّی اللّه عليه وسلّم تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلی ولا يعمل بها أحد بعدی. (ابن كثير الدمشقی، ١٤١٩ هـ.ق، ج٨: ٧٩)

فلمّا وافت الرسول الأكرم (ص) المنيّة وقبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، واجه علیّ (ع) بيئة جافية وتفرّق عنه الناس إلاّ نفراً يسيراً من خاصّة الصحابة. وقد وصف فی أيام خلافته غربته الشديدة بعد وفاة الرسول بقوله:

فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّی مُسْتَأْثَراً عَلَیَّ مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صلی الله عليه وسلّم حَتَّی يَوْمِ النَّاسِ هَذَا. (عبده، ١٤١٣هـ.ق: ٦٢)

وکثیراً ما کان یبثّ شکواه للرسول یقبل علی مرقده الطاهر ویذرف الدموع علیه ویقول:

إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِیلٌ إلا عَنْکَ وإنَّ الْجَزَعَ لَقَبِیحٌ إلا عَلَیْکَ وإنَّ الْمُصَابَ بِکَ لَجَلِیلٌ وإنَّهُ قَبْلَکَ وَبَعْدَکَ لَجَلَلٌ. (المصدر السابق: ٦٩٤)

وقد نسبوا له هذه الأبیات یرثی بها رسول الله عندما کان یعرّج علی مثواه الطاهر:

ما غاضَ دمعی عندَ نازلةٍ ... إلاّ جعلتُکَ لِلْبُکا سَبَبا

وإذا ذَکَرْتُکَ مَیِّتاً سَفَحَتْ ... عَینی الدموعَ فَفاضَ وانسَکَبا

إنّی أُجِلُّ ثَریً حَلَلْتَ بِهِ ... عَن أنْ أُرَی لِسِواهُ مُکْتَئِبا

(الإمام علی بن ابی طالب، ١٣٨٢ هـ.ق: ١٤)

لکنّ الذی کان یخفّف من وطأة هذه الغربة وجود فاطمة بنت محمّد إلی جانبه یصبّرها وتصبّره، بعد إذ تعرّضا للهتک والظلم من قبل أهل المدینة وقد کانا یرفلان فی العزّ أیام رسول الله (ص)، ولا نقصد من العزّ بحبوحة العیش أو الیسر المادّی، فهما من نزلت فی حقّهما آیات سورة الدهر تنبئ عن فقرهما المدقع وفاقتهما الشدیدة فی حیاة الرسول وأنّهما کانا یؤثران علی نفسیهما وعلی أبنائهما ولو کان بهم خصاصة. وإنّما نقصد الإیصاء المستمرّ من قبل الرسول للمسلمین بمودّة أهل بیته ورعایة حرمتهم. جاء هذا فضلاً عن الحثّ القرآنی الآمر بمودّتهم فی قوله تعالی: قُلْ لا أَسْأَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إلا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبَی (سورة الشوری: ٢٣) تقول فاطمة الزهراء تخاطب أباها وتتحدّث عن غربتها وغربة علیّ (ع):

أبَدی رِجالٌ لَنا نجوی صُدورِهِم ... لمّا مَضَیْتَ، وحالَتْ دُونَکَ التُرُبُ

واختل لِقَومِکَ لمّا غِبتَ وَانْقَلَبُوا ... لمّا قَضَیْتَ، وَحالَتْ دُونَکَ الکُثُبُ

تَجَهَّمَتْنا أُناسٌ، واسْتُخِفَّ بِنا ... لمّا فُقِدْتَ، وکُلُّ الإرثِ مُغْتَصَبُ

قَدْ کانَ بَعدَکَ أنباءٌ وهنبثةٌ ... لَو کُنتَ شاهِدَها لَم تَکثُرِ الخُطُبُ

إنّا فَقَدْناکَ فَقْدَ الأرضِ وابِلَها ... إذْ غابَ مُذْ غِبْتَ عَنّا الوحیُ والکُتُبُ

(الصالحی الشامی،محمد بن یوسف، ١٤١٤ هـ.ق، ج١٢: ٢٨٩)

لکنّ مشیئة الله عزّ وجلّ قضت باشتداد توحّد علیّ (ع) بوفاة فاطمة والتحاقها بالرفیق الأعلی بعد بضعة أشهر من رحیل الرسول الأعظم (ص). «وعن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه (ص) یا أبا الریحانتین عن قلیل یذهب رکناک فلمّا توفی رسول اللّه (ص) قال علّی هذا أحد الرکنین، فلما توفیت فاطمة قال وهذا الرکن الآخر». (سبط بن الجوزی، یوسف بن حسام الدین، ١٤١٨ هـ.ق:٢٨٧) فبادر علی(ع) إلی دفنها لیلاً وأنشد یقول:

أرى عِلَلَ الدّنيا عَلَيَّ كثيرةً وصاحبُها حتّى الممات عليلُ
لِكُلِّ اجتِماعٍ من خَليلَيْنِ فُرْقَةٌ وكُلُّ الَّذى دُونَ الْفِراقِ قَلِيلُ
وَإنَّ افتِقادِى واحداً بَعْدَ واحِدٍ[٤] دَليلٌ عَلى أنْ لا يَدومُ خَلِيلُ

وقال أيضاً :

ألا أيُّها الموتُ الَّذى لَيْسَ تارِكى أرِحْنى فَقَدْ أفْنَيْتَ كُلَّ خَلِيلِ
أراكَ بَصِيراً بِالَّذِينَ أُحِبُّهُمْ كَأنَّكَ تَنْحُو نحوَهُمْ بِدَلِيلِ

(المصدر نفسه)

ولم تكن هذه الكلمات كلمات رثاء وحسب بل فيها ما يحكى عن تنكّر أهل المدينة وتنكّبهم عليه وعلى زوجه المظلومة. وقد عرّج بعد الفراغ من مدفن الزهراء نحو مرقد الرسول وبثّ شكواه إليه ينبّئه بأنّ القوم قد كدّروا عليه عيشه بعد عهد غير طويل من وفاته (ص) يقول علىّ (ع):

السلامُ عليک يا رسولَ اللّه وعلى ابنتِکَ النازلة فى جوارک السريعة اللحاق بک، قَلَّ تَصَبُّرى عنها وضَعُفَ تجَلُّدى على فراقِها، ألا إنّ فى التأَسّى لى بعظيم فُرقتِکَ وقادحِ مصيبتِک مقنعاً فإنّا للّه وإنا إليه راجعون، فلقد استُرجعَتِ الوديعةُ وأُخِذَت الرهينةُ، أمّا حزنى عليكما فَسَرمَدٌ وأمّا ليلى فَمُسَهَّدٌ؛ إلى أن يختارَ اللّهُ لى دارَکَ التى أنت بها مُقيمٌ وينقلَنى من دار التكدير والتأثيم، وستُخبرُکَ ابنتُکَ بما لَقِينا بعدَک فأحفِها بالسؤال واستعلِمْ منها الأمورَ والأحوالَ، هذا ولم يطُلِ العهدُ ولم يمتدَّ الزمانُ، فعليكما منّى السلامُ، سلامُ مُودِّعٍ لا قالٍ ولا سَئِم. فإن أنصرِفْ فلا عن مَلالة وإن أُقِمْ فلا عن سُوءِ ظَنٍّ بما وَعَدَ اللّهُ الصّابرينَ وأعَدَّ لِلمجرمين. (سبط بن الجوزى، يوسف بن حسام الدين، ١٤١٨هـ.ق: ٢٨٧)

ولم يقف توحّد الإمام عند هذا الحدّ، بل شاء الدهر له أن يواجه من مصائب فقْد الإخوة المواسين فى الله الشىء الكثير. وقد جاء فى نهج البلاغة ما يدلّ على هذا التوحّد الإخوانى شىء غير يسير؛ منه قوله عليه السلام قبل استشهاده ببضعة أيام فى كلام مؤثّر يندب فيه أصحابه الذين قضوا نحبهم فى صفّين:

مَا ضَرَّ إخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَنْ لا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً يُسِيغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنِقَ، قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟[٥] وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ؟

ثمّ ينقل الشريف الرضىّ عن الراوى قوله أنّه عليه السلام ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ثُمَّ قَالَ:

أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوه. (عبده، محمد، ١٤١٣هـ.ق: ٣٦٩)

ولو تأمّلنا فی هذا الکلام لرأینا أنّ هذا الرجل المتوحّد الفذّ یعمد دوماً إلی أنّ توحّده لیس کاغتراب کلّ راثٍ یندب فقیده ویبکیه، وإنّما یبکی توحّده العقائدی الناشئ عن التزامه الصامد بالمبادئ والقیم والعقائد، وهذا ما یمیّزه عن سائر الناس بل عن سائر المغتربین المتوحّدین. فهو لا یکاد ینتهی من بکائه المریر حتی یبادر إلی بیان أنّ هؤلاء الذین یبکیهم کانت تربطه بهم صلة العقیدة فهم التالون المحکمون للقرآن والمتدبّرون الفرض والساعون لإقامته والمحیون للسنّة والمیتون للبدعة والمستجیبون لدعوة القائد الحقّ والمجاهدون تحت لوائه دون ریب أو شکّ. کانت هذه الصفات آنذاک فذّة لا تجتمع إلاّ فی نفر قلیل وافتهم المنیّة ممّا جعل صاحبهم یشعر بوحدته وغربته.

د) التوحّد الاجتماعی

تعدّ الغربة الاجتماعیة واحدة من أشدّ أنواع الغربة، فالمغترب یعیش بین أهله وعشیرته وأقاربه وبین ظهرانیهم، إلاّ أنّه رغم ذلک یشعر بالغربة لکون هؤلاء لا یشاطرونه همومه ولا یدینون بالعقائد التی یدین بها فیری نفسه فی واد غیر الوادی الذی یهیمون فیه. ولهذا النوع من الاغتراب أسباب ودواعٍ کثیرة وحالات مختلفة. لکنّ الذی انتاب علیّاً علیه السلام کان نوعاً من الاغتراب العَقَدیّ[٦]. فالذی میّز علیاً عن سائر الناس حرصه الشدید علی الالتزام بمبادئ العقیدة والورع والتقوی. ولشدّ ما أخطأ المؤرّخون ونقّاد التاریخ فی حقّ الرجل إذ وصفوه بعدم الحنکة والدرایة السیاسیة وأنّه ما استطاع أن یحتفظ بزمام الأمور فلم یدم الأمر له ولم تستمرّ الحکومة فی قبضته. والسبب فی هذه الأحکام الجائرة أنّ بین المعاییر والموازین التی یحکم بها هؤلاء ویصنّفون علی أساسها أرباب الحکم تختلف کلّ الاختلاف عن التی انتهجها علیّ بن أبی طالب (ع). فعلی هو ذلک الإنسان الذی لا یسمح لنفسه أن یُعْطَی الدنیا وما فیها مقابل ظلم بسیط لنملة یسلبها طعامها:

واللَّهِ لاَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلاَلِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ ورَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ ... وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُه. (المصدر السابق: ٤٦٩)

وهذا ممّا لا تحتویه قوامیس هؤلاء المؤرّخین، وممّا لا تجد له نظیراً فیمن سواه من الحکّام.

ولا بأس هنا لو أشرنا إلی روایة نقلتها عامّة کتب المسلمین من سنّة ومن شیعة بلغت حدّ التواتر وهی روایة لرسول الله (ص):

بدأ الإسلام غریباً وسیعود غریباً، فطوبی للغرباء.[٧]

إلاّ أنّ ما اختلفت فيه الروايات هو تكملة الحديث حيث يُسألُ الرسول عن هؤلاء الغرباء وشأنهم فتروى له إجابات مختلفة فى ذلک، نصنّفها بحسب ما يلى ونأخذ نماذج تطبيقية منها من خلال كلام أمير المؤمنين على (ع) وهى عبارة عن:

بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: النَزّاع من القبائل.[٨] (الأحسائى، محمد بن على، ١٤٠٥ هـ.ق، ج ١: ١٠١)

وجليّ ما يعنيه الرسول الأكرم فالغرباء هم الذين سبقوا الآخرين من الناس فى الإيمان بالرسالة النبوية وانفردوا بذلک ونزعوا من قبائلهم وتوحّدوا واغتربوا بذلک. وبديهى أنّ الرسول الأكرم لا يخصّ شخصاً بذاته فى هذا الحكم لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ الحديث ينطبق على علىّ بن أبى طالب (ع) لكونه أول من آمن بنبوة الرسول الأكرم حسبما وصلنا من أمّهات كتب السيرة، وأنّه كان بضمن من نزع من قومه وعشيرته وقبيلته قريش فى الإيمان بالرسالة المحمّدية. وإليک طائفة من حديثه عليه السلام فى هذا المضمون؛ أمّا عن كونه السبّاق فى إيمانه بالرسول فيقول:

وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. (عبده،محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ٤١١)

وفى هذه الخطبة نفسها يذكر عليه السلام كيف كذّبت قريش رسولَ الله (ص) بعدما رأت منه المعاجز ومنها معجزة الشجرة ونعتته بالساحر الكذّاب وقد كان عندها الصادق الأمين فتولّت وأعرضت عنه لكنّه (ع) آمن برسالة الرسول:

فَقُلْتُ أَنَا: لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِکَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِکَ وَإِجْلالاً لِكَلِمَتِکَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ ساحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ وَهَلْ يُصَدِّقُکَ فِي أَمْرِکَ إِلاّ مِثْلُ هَذَا؟! يَعْنُونَنِي. وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ سِيمَاهُمْ سِيمَا الصِّدِّيقِينَ وَكَلامُهُمْ كَلامُ الأَبْرَارِ، عُمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ يُحْيُونَ سُنَنَ اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ لا يَسْتَكْبِرُونَ وَلا يَعْلُونَ ولا يَغُلُّونَ وَلا يُفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي الْجِنَانِ وأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ. (المصدر السابق: ٤١٢)

وأمّا عن كونه النزّاع من القبائل فيقول سلام الله عليه:

أَنَا وَضَعْتُ بِكَلاكِلِ الْعَرَبِ وكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ ومُضَرَ وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ (المصدر السابق:٤١١)

ويصف شدّة هذا النزوع بقوله:

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلاّ إِيمَاناً وتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِ. (المصدر السابق: ۱۲۹)

ولقد تركت الإحن والضغائن التى حملتها قريش وسائر قبائل العرب على علىّ (ع) أثرها، كيف لا وما من قتيل من كبار قتلى المشركين إلاّ ولعلىّ يد فى هلاكه. ترى هل بإمكان الذين آمنوا برسالة الرسول عن مضض أو عن ضعف عقيدة أن ينسوا أو يتناسوا ذلك؟ ولعمرى بقيت تلك الضغائن دفينة فى قلوب المشركين والمنافقين حتى قضى رسول الله نحبه فإذا بالوجوه قد اكفهرّت وإذا بنواجذ الوجد والغيظ قد بدت، يقول عليه السلام:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَئُوا إِنَائِي وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي وقَالُوا أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ فَاصْبِرْ مَغْمُوماً أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ ولا ذَابٌّ ولا مُسَاعِدٌ إِلاّ أَهْلَ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى وَجَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَى وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ حَزِّ الشِّفَارِ. (المصدر السابق: ٤٥٣)

ويشير عليه السلام فى طيّات نهج البلاغة إلى بعض من هذه الضغائن الدفينة التى كانت تظهر نفسها بين الحين والآخر فيقول فى شأن الشورى التى تكوّنت بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لتعيين الخليفة من بعده: «فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَهَنٍ» حيث ذهب كثير من شرّاح النهج ومنهم ابن أبى الحديد إلى أنّ الذى صغا لضغنه وتفجّرت فى قلبه أحقاد الجاهلية الأولى هو طلحة، قال:

أما قوله (ع) فصغا رجل منهم لضغنه فإنه يعنى طلحة ـ وقال القطب الراوندى يعنى سعد بن أبى وقاص ـ لأن عليا ع قتل أباه يوم بدر ـ وهذا خطأ فإن أباه أبو وقاص واسمه مالك بن أهيب ... مات فى الجاهلية حتف أنفه ... فأما الرواية التى جاءت بأن طلحة لم يكن حاضرا يوم الشورى فإن صحّت فذو الضغن هو سعد بن أبى وقاص لأن أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس والضغينة التى عنده على على(ع) من قبل أخواله الذين قَتَلَ صناديدَهم وتقلَّدَ دماءهم، ولم يعرف أنّ عليا (ع) قتل أحداً من بنى زهرة لِيُنسَبَ الضغن إليه. وهذه الرواية هى التى اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ. (ابن أبى الحديد،عزالدين حامد، ۱۳۳۷هـ.ش، ج۱، ۱۸۸)

وأيّاً كان الصاغى لضغينته، فإنّه لم يختلف اثنان فى كون الحقد الذى حملته قريش على علىّ إنّما هو لقتاله المشركين وضرب خراطيمهم والتزامه النهج الرسالى وتطبيقه الحرفىّ لأوامر الله فى الثبات للمشركين والصمود على الحقّ. ولم تنته الأحقاد عند هذا الحدّ بل استمرّت حتى يوم الطفّ إذ اجتمع الناس على الحسين بن على (ع) يقاتلونه فسألهم عن الذنب الذى اقترفه وجعلهم ينبرون لقتاله فأجابوه بكلّ صلف: «إنّما نقاتلك بغضاً لأبيك». والذى جعل قريشاً تعادى علياً

وتظلمه كون على غير مداهن فى إحقاق حقّ وإبطال باطل، إذ ليست الأحقاد وحدها سبب إعراضها عنه، بل لمعرفتها أيضاً أنّ الله اختاره وارتضاه إماماً وأنّ عليها أن تدخل فى حيّز إمارته، يقول واصفاً موقفه الصلب هذا تجاه قريش:

فَلأُنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ مَا لِي وَلِقُرَيْش وَاللَّهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بالأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ، واللَّهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلاّ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا. (عبده، محمد، ١٤١٣هـ.ق: ١٠٤)

بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون قليلٌ فى ناس كثير، مَن يعصيهم أكثر ممّن يطيعهم» (المالكى الأشترى، ١٣٧٦ هـ.ق، ج١:٣) وكذلک رواية: «قيلَ ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناسٌ صالحون قليلٌ فى ناس سوءٍ كثيرٍ، مَن يَعصِيهم أكثرُ ممّن يُطيعُهم. (الآجرى، محمدبن الحسين، ١٤١٤ هـ.ق: ٢٨)

يتناول هذا الحديث جانباً آخر من سمات المتوحّدين الغرباء، فمن صفاتهم أنّهم صالحون، وبهذا يعزل الرسول الغرباء غير الصالحين، فالتاريخ يحدّثنا عن عدد من الشعراء الذين تحامتهم قبائلهم لجنح اقترفوها وذنوب لم تغفرها لهم، فطردوا وأضحوا غرباء. وهؤلاء ليسوا مصداقاً للذين أشاد بهم الرسول بقوله «طوبى للغرباء»، والسمة الثانية أنّهم يندرجون فى إطار الأقلية فى مجتمعهم، وإلاّ لما كانوا غرباء، فالغريب المتوحّد من وجهة نظر رسول الله (ص) هو من الأقلية الصالحة. وكم يحدّثنا القرآن عن هذه الأقلية الفائزة برضوان الله. يقول عن الذين آمنوا بنوح (ع) وركبوا معه الفلک: وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلا قَلِيلٌ (سورة هود: ١٣) ويقول أيضاً: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (سورة سبأ: ١٣) ويقول جلّ وعلا: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَشْكُرُونَ (سورة البقرة: ٢٤٣) ويقول: وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (سورة الأنعام: ١١٦) ويقول: واللهُ غالبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يَعْلَمُونَ (سورة يوسف:٢١) ويقول كذلک: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لا يُؤْمِنُونَ (سورةهود: ١٧) كما يقول جلّ وعلا: وَمَا أَكْثَرُ النَّاس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (سورة يوسف: ١٠٣) وما إلى ذلک من الآيات البيّنات الدالّة على أنّ المؤمنين الثابتين على الصراط المستقيم غالبا ما يكونون أقلية مستضعفة. أمّا السمة الثالثة التى نتبيّنها من الحديث الشريف أنّ هذه الأقلية الصالحة مستضعفة لا يُعبأ بها وأنّ أكثر الناس يعصونها ولا يطيعونها. من هنا نستشفّ أنّ الغرباء المتوحّدين هم أناس يعيشون فى المجتمع ومع الناس وهم دعاة إلى الله حيث لا يطاعون، خلافاً لما يتصوّره البعض أنّ الغرباء هم فئة اعتزلت المجتمع لكونها غريبة ولا يشاطرها الناس أفكارها ومعتقداتها. إذ لابدّ أن يدعوا الناس ويأمروهم بشىء ما ليكون من يعصيهم أكثر ممّن يطيعهم. وإلاّ فإنّهم إن كانوا ممّن اعتزلوا المجتمع لما كانت

هناک حاجة للإطاعة أو العصیان لأنّهم معتزلون لا یأمرون ولا ینهون. ولیس من مرام الأنبیاء ولا الأوصیاء ولا عباد الله الصالحین أن یترکوا الناس سدی لمجرد أنّهم لم یطیعوهم. یقول علیّ (ع):

أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لا یَسْتَغْنِی الرَّجُلُ وإِنْ کَانَ ذَا مَال عَنْ عَشِیرَتِهِ ودِفَاعِهِمْ عَنْهُ بأَیْدِیهِمْ وأَلْسِنَتِهِمْ، وهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حِیطَةً مِنْ وَرَائِهِ وأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وأَعْطَفُهُمْ عَلَیْهِ عِنْدَ نَازِلَة إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. ولِسَانُ الصِّدْق یَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِی النَّاسِ خَیْرٌ لَهُ مِنَ الْمَال یُوَرِّثُهُ غَیْرَهُ. أَلا لا یَعْدِلَنَّ أَحَدُکُمْ عَنِ الْقَرَابَة یَرَی بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ یَسُدَّهَا بِالَّذِی لا یَزِیدُهُ إِنْ أَمْسَکَهُ ولا یَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَکَهُ. ومَنْ یَقْبِضْ یَدَهُ عَنْ عَشِیرَتِهِ فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ یَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَیْدٍ کَثِیرَةٌ ومَنْ تَلِنْ حَاشِیَتُهُ یَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ (عبده، محمد،١٤١٣هـ.ق: ٨٢ و٨٣)

ونستشفّ أیضاً أنّ الغرباء الذین تتحدث عنهم الروایة یمتازون بمستوی فکریّ رفیع سام یؤهّلهم للدعوة والأمر والنهی. ولعلّ هذه الروایة ـ أی کون الغرباء أناساً صالحین قلیلاً فی ناس سوءٍ کثیر، مَن یَعصِیهم أکثرُ ممّن یُطیعُهم ـ أدلّ فی المصداقیة علی أمیر المؤمنین علیّ (ع). وإلیک نماذج من معاناته بعدما تسلّم الخلافة. یقول (ع):

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَکَثَتْ طَائِفَةٌ ومَرَقَتْ أُخْرَی وقَسَطَ آخَرُونَ، کَأَنَّهُمْ لَمْ یَسْمَعُوا کَلامَ اللَّهِ حَیْثُ یَقُولُ (تِلْکَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لا یُرِیدُونَ عُلُوًّا فِی الأَرْضِ ولا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ) بَلَی وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا ووَعَوْهَا ولَکِنَّهُمْ حَلِیَتِ الدُّنْیَا فِی أَعْیُنِهِمْ وراَقَهُمْ زِبْرِجُهَا. (المصدر السابق: ٥٦)

ویصف عصیان أصحابه وعدم طاعتهم له بقوله:

لَقَدْ کُنْتُ أَمْسِ أَمِیراً فَأَصْبَحْتُ الْیَوْمَ مَأْمُوراً وکُنْتُ أَمْسِ نَاهِیاً فَأَصْبَحْتُ الْیَوْمَ مَنْهِیّاً وقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ ولَیْسَ لِی أَنْ أَحْمِلَکُمْ عَلَی مَا تَکْرَهُونَ. (المصدر السابق: ٤٣٩)

ولم ینته موقف الأمّة من إمامها إلی هذا الحدّ بل بلغت الأزمة أوجها فصار علیّ لا یجد لنفسه إلاّ النزر الیسیر من الثقاة یبثّ إلیهم شکاواه ویحدّثهم عن غصصه. إنّه یذکر ملامح هذا الوضع المزری بعبارات ملؤها الحزن والکمد:

اسْتَنْفَرْتُکُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا وأَسْمَعْتُکُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا ودَعَوْتُکُمْ سِرّاً وجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِیبُوا ونَصَحْتُ لَکُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَ شُهُودٌ کَغُیَّاب وعَبِیدٌ کَأَرْبَاب أَتْلُو عَلَیْکُمُ الْحِکَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا وأَعِظُکُمْ بِالْمَوْعِظَة الْبَالِغَة فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا وأَحُثُّکُمْ عَلَی جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْی فَمَا آتِی عَلَی آخِرِ قَوْلِی حَتَّی أَرَاکُمْ مُتَفَرِّقِینَ أَیَادِیَ سَبَا تَرْجِعُونَ إِلَی مَجَالِسِکُمْ وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِکُمْ أُقَوِّمُکُمْ غُدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَیَّ عَشِیَّةً کَظَهْرِ الْحَنِیَّة عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وأَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ. (المصدر السابق: ٢١٦)

ویتحدّث علیه السلام عن الفترة التی تلت وفاة الرسول الأکرم (ص) وکیف کان یعانی الغربة فی قوم لم یمض علی بیعتهم له سوی بضعة شهور، فبقی من دون ناصر ومعین لا أحد یطیعه أو یقیم له وزناً، یقول:

> وطَفِقْتُ أُرْتَئِى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ ويَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ ويَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَرْتُ وفِى الْعَيْنِ قَذًى وفِى الْحَلْقِ شَجًا. (المصدر السابق: ٥١)

«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلُحون إذا فسد الناس» (الأحسائى، محمد بن على، ١٤٠٥هـ.ق، ج١: ١٠١) وقد زاد كتاب النوادر إليها العبارة الآتية:

> إنّه لا وحشة ولا غربة على مؤمن، وما من مؤمن يموت فى غربة إلاّ بكت عليه الملائكة رحمةً له، حيث قلّتْ بواكيه وإلاّ فُسِحَ له فى قبره بنور يتلألأ من حيث دُفِنَ إلى مسقط رأسه. (الراوندى، فضل الله، ١٣٧٠هـ.ش: ٩)

وهذه الرواية أيضاً تعطى مصداقاً آخر للغرباء حدّده الرسول الأكرم (ص). وهو كون الغرباء أقلية من الناس تصلح إذا فسد غالبية الناس. وهذا ما يجعلها تعانى الغربة وفقدان الرفيق.

وفى كلام علىّ (ع) ما يدلّ على هذا المعنى أى أنّه بقى ملتزماً بالنهج المحمّدى الأصيل وقد انحرف غالبية الناس عن السنّة المحمّدية، يقول:

> وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِنْتُمْ مَا حُذِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ، وتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ، ولَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِى وبَيْنَكُمْ، وأَلْحَقَنِى بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِى مِنْكُمْ، وأَلْحَقَنِى بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِى مِنْكُمْ، قَوْمٌ واللَّهِ مَيَامِينُ الرَّأْى، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْىِ، مَضَوْا قُدُماً عَلَى الطَّرِيقَةِ، وأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفِرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ. (عبده، محمد، ١٤١٣هـ.ق: ٢٥٦)

لقد واجه الرجل ظروفاً عصيبة فى أخريات أيامه. حيث كان يرى بأمّ عينه كيف أنّ الناس أعرضوا عن طريق الحقّ وتقاعسوا عن نصرة الباطل واستسلموا للغوغاء الذين باعوا دينهم بدنياهم وتبعوهم بكلّ ما أوتوا من قوّة. ولقد كان عليه السلام يرى ببصيرته الإيمانية النافذة ما سيؤول إليه أمر قومه الذين تولّوا الباطل:

> مَا لِى أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بلا أَرْوَاحٍ، وأَرْوَاحاً بلا أَشْبَاحٍ، ونُسَّاكاً بلا صَلاحٍ، وتُجَّاراً بلا أَرْبَاحٍ، وأَيْقَاظاً نُوَّماً، وشُهُوداً غُيَّباً، ونَاظِرَةً عُمْياً، وسَامِعَةً صُمّاً، ونَاطِقَةً بُكْماً، رَأَيْتُ ضَلالَةً قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الضَّلَّةِ، فَلا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الأَدِيمِ، وتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ، وتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اسْتِخْلاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ. (المصدر السابق: ٢٣٥)

وما ورد فى هذا المعنى لكثير يدلّ على هذا الانحراف السافر عن سنّة الرسول. ومنه قوله (ع):

> فَيَا عَجَبِى ومَا لِىَ لا أَعْجَبُ مِنْ خَطَإِ هَذِهِ الْفِرَقِ عَلَى اخْتِلافِ حُجَجِهَا فِى دِينِهَا، لا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِىٍّ

ولا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، ولا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، ولا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، ويَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا عَرَفُوا، والْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُبْهَمَاتِ عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقَاتٍ وأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ. (المصدر السابق:١٨٤)

بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنّتي ويعلّمونها للناس. (ابن قيّم الجوزيّة، محمد، ١٣٩٧هـ.ق: ١٢٢)[٩]

ولا أظنّ منصفاً من المؤرخين والباحثين ينكر مدى تمسّک علیّ بن أبی طالب بسنّة رسول الله وسعيه فی إحيائها وتعليمها للناس. أمّا إلمامه بسنّة الرسول ومعرفته بعلومه فإنّه يصفهما بقوله:

وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ ولا يَرَاهُ غَيْرِي ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ. ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (ص) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى إِلاَّ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ وَزِيرٌ وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ. (عبده، محمد، ١٤١٣هـ.ق: ٤١١)

وأمّا سعيه لإحيائها وتحمّله الغصص تلو الغصص من أجل ترسيخها فی المجتمع الشارد عن الحقّ فيدلّ عليه قوله:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً ويَمُوتُونَ ضُلاَّلاً، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، ولا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً ولا أَغْلَى ثَمَناً مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، ولا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ ولا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ. (المصدر السابق: ٧٥)

ويبيّن عليه السلام توحّده بين أصحاب رسول الله فی الاطّلاع على مكنون العلم الذی خصّه به الرسول الأكرم. فعلیّ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ وسأل رسول الله عنها، بينما كان سائر الصحابة يسمعون كلامه من خلال إجابته عن أسئلة أعرابیّ غريب، يقول علیّ (ع) واصفاً هذا المعنى:

وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ ويَسْتَفْهِمُهُ حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الأَعْرَابِيُّ والطَّارِئُ فَيَسْأَلَهُ (ص) حَتَّى يَسْمَعُوا وكَانَ لا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلاَّ سَأَلْتُ عَنْهُ وحَفِظْتُهُ، فَهَذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلافِهِمْ وَ عِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ. (المصدر السابق: ٤٤٢)

وكان كثيراً ما ينوّه بمكانته عند الرسول لا من أجل أن يفاخر ـ ومن حقّه أن يفاخر ـ بل من أجل أن يغتنم الناس وجوده بينهم فيستفهموه عن أمور دينهم ودنياهم:

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السِّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

وكان عليه السلام يلقى الحجّة على الناس فى دعوتهم إلى الاستنان بسنّة الرسول بعد أن يبيّنها لهم خير بيان، فكان يرفع يديه بالدعاء يستشهد الله عزّ وجلّ على من أبى الانصياع لإرشاده وكلامه النابع ممّا ورثه عن رسول الله (ص):

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ وَالْمُصْلِحَةَ فِى الدِّين وَالدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلاَّ النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ وَالإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ بِأَكْبَرِ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَنْ أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِى عَنْ نَصْرِهِ وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ. (المصدر السابق: ٤٤٤)

وأخيراً لابدّ من الإشارة إلى الكمّ الهائل من الخطب والكلمات التى تضمّنها نهج البلاغة يبثّ فيها الإمام شكواه من الأمّة التى لم تتوانَ فى إيذائه وتجريعه نغب التهمام وكدّرت عليه حياته ونغّصت عليه عيشه. إلاّ أنّ المجال لا يسمح لنا سوى بعرض طوائف يسيرة تبيّن مدى توحّده واغترابه المؤلم. ومن ذلک قوله:

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْغَدْرِ وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحِلْيَةِ الْمُغْتَرِّينَ» (المصدر السابق:٥٨) وقوله يصف وحدته وتفرّده بعد الرسول (ص): «وَطَفِقْتُ أَرْتَئِى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبَرْتُ وَفِى الْعَيْنِ قَذًى وَفِى الْحَلْقِ شَجًا. (المصدر السابق: ٥١)

وقد قال يصف اجتماع القوم عليه يطالبونه بدم عثمان بن عفّان:

وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَىَّ مُنْكَراً وَلا جَعَلُوا بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ نَصِفاً وَ إِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ. (المصدر السابق: ٨٠)

ولَشَدّ ما أبدى سخطه على أصحابه لشدّة تباطؤهم فى نصرة الحقّ:

مُنِيتُ بِمَنْ لا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لا أَبَا لَكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ؟ وَلا حَمِيَّةٌ تُحْمِشُكُمْ؟ أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً فَلا تَسْمَعُونَ لِى قَوْلاً وَ لا تُطِيعُونَ لِى أَمْراً حَتَّى تَكَشَّفَ الأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ. (المصدر السابق: ١١٣)

وقد بثّ شكواه إلى رسول الله (ص) من أمّته فى عالم الرؤيا أو فى ما يراه الأولياء من عالم الغيب فقال:

مَلَكَتْنِى عَيْنِى وَأَنَا جَالِسٌ فَسَنَحَ لِى رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الأَوَدِ وَ اللَّدَدِ؟ فَقَالَ: ادْعُ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ أَبْدَلَنِى اللَّهُ بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ وَأَبْدَلَهُمْ بِى شَرّاً لَهُمْ مِنِّى. (المصدر السابق: ١٤٤)

نتائج خلص إليها هذا المقال

١. التوحّد نوع من أنواع الغربة، حيث يجد صاحبها نفسه غريباً بين أبناء مجتمعه لكونهم لا يرقون إلى مستواه العلمي ولا يضاهونه في عظمته.

٢. من أكثر أنواع الغربة في التاريخ ، الغربة المكانية أو الجغرافية، وهي التي يجد صاحبها نفسه بعيداً عن أسرته وعشيرته وبلده. فتثير هذه الغربة أشجانه وأحزانه، لكنّنا نجد أمير المؤمنين علياً عليه السلام لا يكترث لهذه الغربة بل ويشجّع عليها أحياناً.

٣. ومن أنواع الغربة أيضاً الغربة الزمانية حيث يرى المرء نفسه غريباً في زمانه إمّا لكونه متقدّماً على مجتمعه في زمانه أو لأنّه يرى الموازين التي يمتّ إليها بصلة قد ولّت وأدبرت بإدبار الزمان فمايزال يذكرها ويذكر زمانها بشيء من الحسرة ويتوق إلى العودة إلى ذلك الماضي. وقد تكون الغربة الزمنية بالتطلّع للزمن الآتي، وهو الزمن الموعود به والذي يحمل له الأمل الواعد. وفي كلام عليّ عليه السلام ما يدلّ على هذا النوع من الغربة بشقّه الأول.

١. والنوع الثالث من أنواع الغربة نمطها الإخواني، حيث يجد المرء نفسه بعيداً عن أناس كان يحبّهم ويحبّونه ويرتاح إليهم ويشاطرهم أخلاقهم وعقائدهم.

٢. ومن أنواع الاغتراب، الغربة الاجتماعية، وهي من أقسى أنواعها. وقد رأينا ما من الحثّ في الحديث والرواية على فضيلة هذه الغربة بمصاديقها المثالية المتمثّلة بإحياء السنّة والانتماء إلى الأقلية الحقّة والصالحة. وكان هذا النوع من التوحّد من أشدّ أنواع غربة عليّ بن أبي طالب.

الهامش

١. القلوص: الناقة الشابّة وهي في منزلة الجارية من النساء.

٢. طَلَحه السفرُ: أعياه وأسقطه، والطليح هو المتعَب الساقط.

٣. المهامه الفيح: الصحارى الشاسعة.

٤. جاء في كتاب «تذكرة الخواصّ» لسبط بن الجوزي ص٢٨٧: وإنّ افتقادي فاطماً بعدَ أحْمَدٍ.

٥. أراد عمار بن ياسر وأبا الهيثم مالك بن التيهان وخزيمة بن ثابت صاحب رسول اللّه الذي جعل رسول اللّه (ص) شهادته مقام شهادة رجلين.

٦. نسبة إلى العقيدة.

٧. رواها من الشيعة المجلسي في البحار ج ٨ ص١٢ لكن عن أمير المؤمنين علي (ع)، والصدوق في عيون أخبار الرضا ج١ ص ٢١٨ عن الإمام الرضا عن رسول الله وابن جمور الأحسائي في العوالي ج١ هامش ص٣٣، والكليني في الكافي ج١ ص٣٩١، وآخرون. ورواها من أهل السنّة

المتّقی الهندی فی کنْز العمال فی الحدیث ١١٩٢ ومسلم فی صحیحه ج١ ص ٩٠ وآخرون کثیرون.

٨. یقصد (ص) بالنزّاعین أولئک الذین انفردوا فی قبائلهم لقبولهم الإسلام.

٩. جاء الحدیث فی کتب الشیعة علی صیغة مختلفة بعض الشیء، قال (ص): «رحم الله خلفائی ... الذین یحیون سنّتی ویعلّمونها عباد الله» (الشهید الثانی، ١٤٠٩ق /١٠١)

المصادر

القرآن الکریم.

الآجری، محمّد بن الحسین (١٤٠٣ق). *کتاب الغرباء*، تحقیق بدر البدر، ط١، الکویت، دار الخلفاء للکتاب الإسلامی.

ابن أبی الحدید، عزّ الدین حامد (١٣٣٧ش). *شرح نهج البلاغة*، تصحیح محمد أبوالفضل إبراهیم، ط١، قم، ایران، مؤسسة اسماعیلیان للطباعة والنشر.

ابن باجه الأندلسی، أبو بکر محمد بن یحیی (١٩٧٨م). *تدبیر المتوحّد*. تحقیق الدکتور معن زیادة، ط ١، بیروت، لبنان، دار الفکر.

ابن عربی، محیی الدین (١٤٢٢ق). *محاضرة الأبرار ومسامرة الأخیار*. ط١، بیروت، لبنان، دار الکتب العلمیة.

ابن قیم الجوزیة، شمس الدین محمد بن أبی بکر (١٢٩٢ق). *الغربة والاغتراب*، رسالة مختارة من کتاب مدارج السالکین؛ شرح منازل السائرین، ط٢، القاهرة، مصر، نشر قصی محبّ الدین الخطیب.

ابن کثیر الدمشقی، اسماعیل بن عمرو (١٤١٩ق). *تفسیر القرآن العظیم*، تحقیق محمد حسین شمس الدین، ط١، بیروت، لبنان، دار الکتب العلمیة.

أبو الفرج الإصبهانی، علی بن الحسین (١٩٧٢م). *أدب الغرباء*؛ عنی بنشره صلاح الدین المنجد، ط١، بیروت، لبنان، دار الکتاب الجدید.

أبو فراس الحمدانی، الحارث بن سعید (١٩٨٧م). *الدیوان*، بتحقیق الدکتور محمد التونجی، ط١، دمشق، سوریة، المستشاریة الثقافیة للجمهوریة الإسلامیة الإیرانیة.

الأحسائی، ابن أبی جمهور محمد بن علی بن ابراهیم (١٤٠٥ق). *عوالی اللآلئ العزیزیة فی الأحادیث الدینیة*، ط١، قم، ایران، دار سید الشهداء للنشر.

الإمام علیّ بن أبی طالب (١٣٨٢ق). *دیوان أمیر المؤمنین وسید البلغاء والمتکلّمین*. جمع وترتیب عبدالعزیز الکرم، دون مکان الطبع، مطبعة الکرم.

امرؤ القیس، حندج بن حجر (١٤٢٥ق). *دیوان امرئ القیس*. شرحه عبدالرحمن المصطاوی، ط٢، بیروت، لبنان، دار المعرفة.

البستانی، فؤاد أفرام (١٩٩٣م). *المجانی الحدیثة؛ عن مجانی الأدب شیخو*. ط٧، بیروت، لبنان، دار الشروق.

الجاحظ، عمرو بن بحر (١٤٠٢ق). *الحنین إلی الأوطان*، ط٢، بیروت، لبنان، دار الرائد العربی.

الجبوری، یحیی (١٤٢٨ق). *الحنین والغربة فی الشعر العربی*. ط١، عمان، الأردن، دار مجدلاوی للنشر والتوزیع.

الطائی، حاتم (١٤٠٦ق). *دیوان حاتم الطائی*. شرحه وقدّم له أحمد رشاد، ط١، بیروت، لبنان، دار الکتب العلمیة.

الخطیب البغدادی، أحمد بن علی بن ثابت (١٤١٧ق). *تاریخ بغداد*، ط ١، بیروت، لبنان، دار الکتب العلمیة.
الراوندی، فضل الله (١٣٧٠ ش). *النوادر، ط ١*، قم، ایران، مؤسسة دار الکتاب.
سبط بن الجوزی، شمس الدین یوسف بن حسام الدین (١٤١٨ق). *تذکرة الخواصّ*. ط ١، قم، ایران، منشورات الشریف الرضی.
الصالحی الشامیّ، محمد بن یوسف (١٤١٤ق). *سبل الهدی والرشاد فی سیرة خیر العباد*، تحقیق عادل أحمد عبد الموجود وعلی محمّد معوض، ط ١، بیروت، لبنان، دار الکتب العلمیة.
عبده، محمّد (١٤١٣ق). *شرح نهج البلاغة*. ط ١، بیروت، لبنان، مؤسّسة الأعلمی للمطبوعات.
عنترة بن شدّاد ،العبسی (١٨٩٣م). *دیوان عنتر*، ط ٤، بنفقة خلیل الخوری، بیروت، لبنان، المکتبة الجامعة.
فهیم، حسین محمّد (١٩٨٩م). *أدب الرحلات*، دون معلومات عن الطبعة، سلسلة عالم المعرفة، الکویت، المجلس الوطنی للثقافة والفنون والآداب.
الفیّومی، محمد إبراهیم (١٩٨٨م). *ابن باجه وفلسفة الاغتراب*. ط ١، بیروت، لبنان، دار الجیل.
الکلینی الرازی، محمد بن یعقوب (١٣٦٥ش). *الأصول من الکافی*، ط ٤، طهران، ایران، دار الکتب الإسلامیة.
المالکی الأشتری، أبو الحسین ورام بن أبی فراس (١٣٧٦ق). *تنبیه الخواطر ونزهة النواظر*، ط ٢، بیروت، لبنان، دار التعارف للمطبوعات.
محجوب، فاطمة (بلا تاریخ). *قضیة الزمن فی الشعر العربی؛ الشباب والمشیب*. ط ١، القاهرة، مصر، دار المعارف.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی